شيخ شعراء القطيف… حين يصمت الصوت ويتكلم الخلود

فقدت الساحة الأدبية والثقافية في القطيف، صباح الثلاثاء 24 نوفمبر 2026م، إحدى قاماتها الأدبية البارزة، برحيل الأديب والشاعر الحاج محمد سعيد بن الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي، الملقب بـ«شيخ شعراء القطيف»، عن عمر ناهز 101 عام، بعد مسيرة حافلة بالعطاء الأدبي والفكري والثقافي، تاركًا للأجيال إرثًا معرفيًّا تنوّع بين الشعر والتأليف والنقد الأدبي والتوثيق التاريخي والاجتماعي.

وبرحيله تُطوى صفحة مهمة من تاريخ الأدب في المنطقة، صفحة امتدت عبر عقود طويلة، عاصر خلالها أجيالًا متعاقبة من الشعراء والأدباء والمثقفين، وأسهم بعطائه في إثراء المشهد الثقافي والأدبي، وكان شاهدًا على كثير من التحولات الفكرية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها المنطقة.

النشأة والتكوين العلمي:

وُلد الأديب محمد سعيد الخنيزي في القطيف في الثاني من فبراير عام 1925م، ونشأ في بيئة علمية أسهمت في تكوين شخصيته الفكرية والأدبية، وتلقى عناية والده الذي ألحقه بكُتّاب البريكي، أحد أبرز الكتاتيب في القطيف آنذاك، حيث حفظ القرآن الكريم، وتعلّم النحو والمنطق والفلسفة وأصول الفقه.

وقد واجه في طفولته تحديات صحية وإنسانية، إذ فقد البصر في إحدى عينيه إثر إصابته بالرمد وهو في السادسة من عمره، كما فقد والده قبل أن يبلغ العشرين، غير أن هذه الظروف لم تثنه عن مواصلة مسيرته العلمية والأدبية، التي مضى فيها إلى جانب عمله في مهنة المحاماة.

وقد أسهم تكوينه العلمي، واطلاعه على التراث العربي، وانفتاحه على الحركة الأدبية الحديثة، في تشكيل شخصيته الأدبية وإثراء تجربته الشعرية والفكرية.

مسيرة شعرية حافلة بالعطاء:

اتخذ الخنيزي من الشعر وسيلة للتعبير عن رؤاه ومشاعره وتأملاته في الحياة، وغلب على نتاجه الشعري التوجه الرومانسي، بما يحمله من اهتمام بالعاطفة والوجدان والتجربة الإنسانية.

وفي عام 1961م، أصدر باكورة أعماله الشعرية «النغم الجريح»، ليكون من أوائل الشعراء الذين أصدروا دواوين شعرية في المنطقة الشرقية، وتوالت بعد ذلك إصداراته الشعرية، ومن أبرزها:

* «النغم الجريح» عام 1961م.

* «شيء اسمه الحب» عام 1976م.

* «شمس بلا أفق» عام 1986م.

* «تهاويل عبقر» عام 1997م.

* «إيحاءات سماوية».

وتكشف عناوين هذه الدواوين عن جانب من ملامح تجربته الرومانسية، التي جعلت من الذات الإنسانية ومشاعرها وهواجسها وتأملاتها موضوعًا للكتابة، في سياق التحولات التي عرفها الشعر العربي خلال القرن العشرين، واتساع اهتمامه بالتجربة الفردية والتعبير الوجداني.

كما تمثل هذه الدواوين جانبًا مهمًّا من الحراك الشعري الذي شهدته القطيف والمنطقة الشرقية خلال العقود الماضية، وتوثّق مرحلة من مراحل تطور الحركة الأدبية فيهما.

حضور أدبي تجاوز الحدود المحلية:

لم يكن حضور الخنيزي الأدبي محصورًا في محيطه المحلي، بل تجاوز ذلك إلى الساحة الثقافية العربية، فقد نشرت قصائده ومقالاته مجموعة من الصحف والمجلات العربية، من بينها مجلة «الكتاب» المصرية، ومجلتا «الأديب» و«العرفان» اللبنانيتان، ومجلتا «الغري» و«الأفق» العراقيتان، ومجلة «العربي» الكويتية، إلى جانب «أخبار الظهران» و«صوت البحرين».

كما وجدت بعض قصائده طريقها إلى الإذاعات العربية وإذاعة لندن، وهو ما يعكس امتداد حضوره الأدبي وانفتاحه على المنابر الثقافية العربية في مرحلة لم تكن فيها وسائل النشر والتواصل متاحة بالسهولة التي نشهدها اليوم.

ويكتسب هذا الحضور أهمية خاصة بالنظر إلى الدور الذي كانت تضطلع به المجلات الأدبية العربية آنذاك في التعريف بالشعراء والأدباء، وتبادل التجارب الفكرية والإبداعية بين مختلف الأقطار العربية.

عطاء يتجاوز حدود الشعر:

لم يقتصر نتاج الأديب الراحل على نظم القصائد وإصدار الدواوين الشعرية، بل امتد إلى التأليف والنقد الأدبي ودراسة التراث العربي والبحث الفكري، فأسهم في إثراء المكتبة العربية بعدد من المؤلفات، من أبرزها:

* «خيوط من الشمس: قصة وتاريخ» عام 2000م.

* «الشعر ودوره في الحياة» عام 2001م.

* «العبقري المغمور» عام 2003م.

* «أضواء من النقد في الأدب العربي» عام 2004م.

* «أوراق متناثرة» عام 2007م.

* «أشباح في الظلام».

فضلًا عن كتاباته حول عدد من أعلام الشعر العربي، ومنهم أبو العلاء المعري وأبو نواس.

ويكشف هذا التنوع في إنتاجه عن شخصية أدبية متعددة الاهتمامات، جمعت بين الإبداع الشعري والكتابة النثرية والنقد الأدبي، فلم تكتفِ بإنتاج النص الأدبي، بل اهتمت أيضًا بدراسته وتحليله وتأمل دوره في الحياة الإنسانية.

«خيوط من الشمس»: ذاكرة تتجاوز السيرة الشخصية

تكتسب سيرته الذاتية «خيوط من الشمس: قصة وتاريخ»، التي صدرت عام 2000م في مجلدين، أهمية خاصة

تتجاوز التعريف بحياة صاحبها ومسيرته الشخصية والأدبية.

فهذا المؤلَّف يقدم مادة توثيقية عن التاريخ الاجتماعي والثقافي للقطيف، من خلال استعادة تفاصيل الحياة اليومية، والتعليم، والعادات والتقاليد، والأماكن، والعلاقات الاجتماعية بين الأُسر، فضًلا عما عاصره المؤلف من أحداث وتحولات.

وتنبع أهمية مثل هذه الكتابات من كونها تحفظ جوانب من الذاكرة الاجتماعية التي قد لا تجد طريقها إلى كتب التاريخ التقليدية، وتتيح للأجيال اللاحقة التعرف على أنماط الحياة السائدة في العقود الماضية، والوقوف على ما شهدته مجتمعاتهم من تحولات وتطورات.

ومن هنا، فإن السيرة الذاتية للأديب الراحل لا تمثل مجرد سجل لحياته الشخصية، وإنما تُعد نافذة يطل من خلالها القارئ على مرحلة مهمة من تاريخ القطيف ومجتمعها وحياتها الثقافية.

التكريم والوفاء لأهل العطاء:

حظي الأديب الراحل بالعديد من التكريمات خلال حياته، تقديرًا لإسهاماته الأدبية والثقافية، فقد كرّمه منتدى حوار الحضارات بالقطيف عام 2010م، ومنتدى الكوثر الأدبي عام 2018م، ومنتدى الخط الحضاري عام 2022م.

وفي يونيو من عام 2022م، احتفت به جمعية التنمية الأهلية بالقطيف، من خلال مهرجان حمل عنوان «شيخ الشعراء: قرن من العطاء»، كما شهد العام ذاته صدور كتاب يحمل العنوان نفسه، من إعداد محمد بن أحمد الزاير، يوثّق مسيرته الأدبية والحياتية.

ومن الجميل أن يحظى أصحاب العطاء الثقافي والمعرفي بمثل هذا التكريم في حياتهم، وأن يشهدوا تقدير مجتمعهم لما قدّموه من جهود وإسهامات، وأن يلمسوا بأنفسهم أثر عطائهم في نفوس أبناء مجتمعهم.

فتكريم المبدعين في حياتهم من أسمى صور الوفاء، ومن أهم وسائل ترسيخ ثقافة الاعتراف بالفضل، وتشجيع الأجيال الناشئة على مواصلة طريق الإبداع والعطاء.

مسؤولية الحفاظ على الإرث الأدبي:

إن رحيل شخصية أدبية بحجم محمد سعيد الخنيزي يدعونا إلى التأمل في أهمية توثيق سير رواد الأدب والثقافة، وجمع نتاجهم الأدبي والفكري، وإعادة نشر مؤلفاتهم، والعمل على إتاحتها للأجيال الجديدة، وإخضاع تجاربهم للدراسة والبحث الأكاديمي.

كما يدعونا إلى الاهتمام بجمع ما تناثر من قصائدهم ومقالاتهم في الصحف والمجلات القديمة، وما قد يكون محفوظًا في مكتباتهم الخاصة من مخطوطات ومراسلات ووثائق أدبية، والعمل على حفظها ورقمنتها، بما يضمن عدم ضياعها مع مرور الزمن.

فهؤلاء الرواد ليسوا مجرد أسماء في تاريخ الأدب، وإنما يمثلون جزءًا من الذاكرة الفكرية والثقافية والاجتماعية لمجتمعاتهم، وشهودًا على مراحل مهمة من تطورها وتحولاتها.

وإن الوفاء الحقيقي لهم لا يقتصر على رثائهم والإشادة بمآثرهم عند رحيلهم، بل يمتد إلى صيانة إرثهم، والتعريف بمنجزاتهم، وإبقاء نتاجهم حاضرًا في المشهد الثقافي.

رحيل الجسد وبقاء الأثر:

بعد أكثر من قرن من الحياة، وعقود طويلة من العطاء الشعري والأدبي والفكري، يودّع شيخ شعراء القطيف الحياة، تاركًا وراءه دواوين ومؤلفات وصفحات من الذاكرة الثقافية والاجتماعية، ستظل شاهدة على مسيرته وعطائه.

وإذا كان الموت يغيّب الأشخاص، فإن العطاء الصادق يبقى شاهدًا على حضورهم، وتظل الكلمات التي أودعوها في مؤلفاتهم ودواوينهم جسورًا تصل بين الأجيال.

لقد رحل شيخ الشعراء، لكن صوته سيظل حاضرًا في قصائده، وفكره في مؤلفاته، وذاكرته في الصفحات التي وثّق فيها جانبًا من تاريخ مجتمعه.

رحم الله الأديب والشاعر الحاج محمد سعيد الخنيزي، شيخ شعراء القطيف، رحمة واسعة، وأجزل له المثوبة، وأسكنه فسيح جناته.